

## عَوْدَةُ الْبَرْبَرِ إِلَى الْحُكْمِ

تتدلى أحسن الممالك نظاماً وأضبطها حكماً إلى الفوضى والاضطراب، حينما تزول العزيمة التي كانت تهديها سواء السبيل، وبهذه الحقيقة وأمثالها تمسك من يرون أن خير أنواع الحكم أن يحكم الشعب نفسه، وقد قيل: إنك إذا قدت الأمة بخيط فوهى أو انقطع، فإنك لا تدري فى أى طريق ستذهب الأمة، وهذه النظرية صادقة على إطلاقها، فمن الشعوب ما هو دائماً فى حاجة إلى خيط يقوده، وليس فى العالم شعب يستغنى تمام الاستغناء عن الاهتداء بعقل مسيطر، على أن هذا الاستغناء ليس فى منفعة الشعوب فى شيء إلا إذا عدت الركود مثلاً فى الحكم صحيحاً.

والأندلس فى أية حال لم تستطع الاستغناء عن يقودها، فإذا مات قائدها وحاكمها سقطت معه الدولة، فهى على حد ما قيل: «حينما يسقط سيزار العظيم، فإننى وأنت وجميع الأمة نسقط معه»، ولم يكن ذلك فى الأندلس عن محبة للحاكم أو انعطاف نحوه، ولكن كان عن عجز وخور، فإن كثرة العشائر المتنازعة والقبائل المتنافسة جعلت الوصول إلى ما يشبه الاستقرار فى حكم الأندلس مستحيلاً، ولن يكبح من جماح هذه العشائر أو يقلل من غرب هذه القبائل إلا يد قوية.

واعتبر هذا بما تقرأ فى تاريخ إرلندة عن العداوة المتأصلة بين سكان الشمال وسكان الجنوب - تعلم أن العرب ليسوا وحدهم الذين رأوا أن من الاستحالة حكم أمة تختلف فيها العناصر والأديان بالسهولة التى تحكم بها أمة متماثلة الأفراد فى الجنس والدين. وتاريخ الأندلس كما قصصنا عليك كان حوادث متعاقبة فى صعود وهبوط، فقد شهدنا فيه أول الأمر غارة عنيفة رائعة لجنود موهوبين، انتهت بفتح لم يكن منتظرًا ولا مرتقبًا، وما كاد يتم فتح الجزيرة، حتى رأينا العشائر المتنافرة التى تجمعت لهذا الفتح المبين تنطلق من عقالها، وتدمر ثمرات الفتح التى جناها السيف واغتصبها الإقدام.

ثم نرى الشمري الذى خلق ليكون ملكًا - وهو عبد الرحمن الداخل - ففري الأندلس وقد عادت مرة أخرى إلى وحدتها وقوتها.

وكان من عادة الفرس عند البدء بمخاطبة ملوكهم أن يقولوا:

«أيها الملك أبقاك الله» وهذا الدعاء يوحى إلى النفس بأنه لو صح وتحقق لكان حلاً لكثير من المشكلات السياسية، على شريطة أن يكون المدعو له بالخلود ملكًا صالحًا. وأول ملك بالأندلس لم يكن بطبيعة الحال خالدًا، وكان من أثر موته ما كان يحصل دائمًا حينما يزول الضغط القوى الحازم، فارتكست الأمة فى الفوضى والحروب الأهلية، ثم جاء ثانية الملك الملمم لإنقاذ الأمة مما هى فيه، وهو الخليفة العظيم، فألزم الناس القانون والنظام فى جميع أرجاء

الأندلس، وهزم الوثابين على المملكة، وداس العصاة بقدميه، وبقيت الأندلس خمسين عاماً في عهده فردوس سلام وازدهار، ولو قدر لعبد الرحمن الناصر أن يكون خالداً في هذه الدنيا لبقى السلام ورفرفت الطمانينة على ربوع الأندلس إلى اليوم، وما كنا نسمع بشيء مما حاق باليهود والعرب في ديوان التفتيش من القتل والقسوة الوحشية، ولا بشيء من أخبار الكارلوسيين<sup>(١)</sup>.

ومن المحزن أن هذا الدعاء ببقاء الملوك الصالحين لا يمكن أن يتحقق، ولكن الخليفة العظيم لم يترك المملكة خلواً ممن يصلح لقيادتها، فإن إسبانيا أنقذت بالملوك مرتين، والآن ينقذها ويجمع شقاتها كبير الوزراء وهو المنصور الذى لا يغلب، والذى نفذت سلطته إلى كل زاوية من زوايا الأندلس. ولكن المنصور أيضاً لم يكن خالداً، وحينما مات «ودفن في الجحيم» كما كان يأمل الراهب المتبتل - أصبحت الأندلس التى بلغت فى عهده قمة الثروة والقوة وعاشت فى كنف السلامة والنظام، فريسة للقوى المتنافرة التى دفنتها عزائمه وسطواته فى جحورها، ففى غضون ثمانين سنة كان يمزق الأندلس تحاسد الزعماء وظلم العتاة من البربر والعرب والصقالبة والإسبان.

نعم إن جذور الحزبية كانت قد اجتثت من أصولها بمرور السنين، وذهب عهد التفاخر بالأنساب والقبائل، لأن الناس نسوا

---

(١) هم أنصار الدون كارلوس البربونى ولد سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٥٥ وهو الابن الثانى لشارل الرابع، وكان يدعى ملك إسبانيا.

أنسابهم، ومع ذلك بقى بالأندلس من التنافس الشخصى والجنسى والدينى ما يكفى لجعلها جحيماً أرضياً من النوع الذى كان يتمنى الراهب المؤرخ أن يدفن المنصور فيه.

واستطاع ابن المنصور وخليفته، أن يصون وحدة المملكة فى مدى ست سنوات، تلاها انهماك سيل جارف من الطامعين المخاطرين، والخلفاء المتنافسين، والأدعياء الوقحين، وكان الإسبان الذين يمثلون جمهرة الأمة يؤثرون أن يحكمهم ملك، ويحبون أن يتعاقب الملوك من أسرة واحدة، ويذكرون بالإعجاب ما كان للدولة الأموية العظيمة من أثر عظيم، ولم يكن من رأيهم فى الحكومة أن يكون المسيطر فيها وزيراً كيفما كان عادلاً صالحاً، لأن الملك فى زعمهم يجب أن يحكم الأمة بنفسه، لذلك رفعوا راية العصيان على ابن ثمان للمنصور، وزاد فى غضبهم أنه أعلن حقه فى وراثة العرش، فمضوا إلى الخليفة هشام المؤيد وحتموا عليه أن يقبض على أزمة الحكم بيديه الضعيفتين الواهنتين.

وقد صعب على هشام المسكين أن ينزع فجأة من عزلته فى القصر بعد أن قضى فيها ثلاثين عاماً، سجيناً معتبلاً بسجنه، فتوسل إليهم ألا يطلبوا منه المستحيل، ولكنهم أصروا على ما يطلبون، فأطاعهم على الرغم منه، غير أنه حينما ظهر للناس جميعاً أن هذا الرجل الكهل كان أضعف من طفل، طلبوا إليه أن يعتزل، وأحلوا مكانه رجلاً من أسرته، وكان سقوطه فى الحقيقة نهاية الدولة الأموية بالأندلس.

ثم جلس على العرش خليفة بعد خليفة فى مدى عشرين عاماً، فكان أحدهم لعبة فى أيدي القرطبيين، وآخر لعبة فى أيدي الحراس من الصقالبة، وثالث لعبة فى أيدي البربر، ورابع كان صورة تخفى وراءها مطامح أمير إشبيلية، ولكنهم كانوا جميعاً لعباً لبعض الأحزاب، ولم يكن لهم مظهر من النفوذ، وقد شهد بهو القصر قتلاً بعد قتل كلما تلا خليفة خليفة، وأخفى مرة أحد هؤلاء الخلفاء المساكين البائسين نفسه فى فرن حمامه، وحينما عرف مكانه جر وذبح أمام الخليفة الجديد الذى لم يأت بعد دوره وإن كان قريباً.

ثم ألزم هشام المؤيد المسكين - الذى نشأ المنصور وأمه «صبح» فى طفولة دائمة - أن يمثل دوره فى صندوق الدنيا، فوضع على العرش ثم خلع، فبدل بقيده الحريرى فى عزلته بين الفواتن من نساء القصر، حيطاناً مظلمة لسجن حقيقى، ولا يعرف إلى الآن ما جرى له بعد ذلك، فنساؤه يعلن أنه جاهد للفرار من سجنه والتجأ إلى آسيا أو مكة، لم يغر العرش ذلك الملك البائس بشيء من مغرياته، لأنه كان يعشق العزلة والانقطاع إلى العبادة، ولا بد أن يكون قد عرف أن بقاءه بالأندلس سيشجع مطامع أنصاره، وأن ذلك سيؤدى حتماً إلى النزاع والتفرقة، فمن المعقول إذاً أن يكون قد آثر أن يقضى بقية أيامه بمكة للعبادة والتبتل.

ثم ظهر دعوى يشبه هشامًا تمام الشبه، وزعم أنه هشام المختفى وادعى ملك إشبيلية، فاعترف به حاكمها لأنه رأى فيه لعبة صالحة فى يديه<sup>(١)</sup> ولكن هشامًا الحقيقى اختفى إلى الأبد ولم يسمع إنسان عنه شيئاً بعد اختفائه.

والذى جرى لهشام المعتد بالله عند عزله يصور لنا ما وصل إليه خلفاء بنى أمية التاعسون من الذلة والمهانة بعد أن تركوا زمامهم للبربر المتوحشين، أو الصقالبة يلعبون بهم كما يلعب بقطع الشطرنج، فقد أمر رؤساء قرطبة أن يجر هذا الخليفة الرفيق الرقيق العاطفة هو وأسرته إلى سجن تحت الأرض مظلم متصل بجامع قرطبة، فجلس الخليفة فى هذا السجن الدامس الظلمة يرتعد من البرد ويتسمم بهوائه الفاسد من العطن، وقد احتضن ابنته الصغيرة وأحاط به نساؤه يبكين ويولولن ويقضضن فى زمهرير قارس، وقد اشتد الجوع بالسجناء بعد أن تركهم السجناء القساة ساعات دون أن يفكروا فى إطعامهم، ثم جاء الشيوخ ليبلغوا هشامًا حكم المجلس الذى اجتمع فى عجلة ليفصل فى أمره، ولكن الخليفة المسكين الذى كان يجهد فى أن يبعث شيئاً من الدفء إلى ابنته التى كان يحملها بين ذراعيه قاطعهم قائلاً:

«نعم نعم. إنى سأخضع إلى حكمهم كيفما كان، ولكنى أسألكم

---

(١) المعروف أن محمد بن عباد أمير إشبيلية هو الذى ادعى وجود هشام ثانية كذباً وتمويهاً ليستعين بهذه الحيلة على أمره ويهدد خصومه.

الله تعالى أن ترسلوا إلى شيئاً من الخبز ... إن هذه الطفلة الصغيرة ستموت بين يدي من الجوع» فتأثر الشيوخ لأنهم لم يريدوا أن يعذب الخليفة هذا التعذيب، وأمروا فأحضر إليه الخبز، ثم استأنفوا الكلام قائلين: «يا مولانا إن المجلس قرر أن تؤخذ عند الفجر لتسجن في قلعة كذا».

فأجاب الخليفة: «فليكن، وليس لي الآن إرغاء واحد، هو أن تأمروا لنا بمصباح، لأن ظلمة هذا المكان الموحش تزعجنا وتخيفنا» ... وارحمته ... لقد وصل الذل والشدة بحاكم المسلمين الزمنى والدينى بالأندلس إلى هذا الحضيض وهو أن يستجدي خبزاً وشمعة<sup>(١)</sup>!

وأمثال هذه الكوارث كانت كثيرة بقرطبة، فكل ثورة كان لها جناها المر من القتل والإرهاب، فإن أهل قرطبة الذين ازداد عددهم كانوا ينزعون إلى الاستقلال وفرض إرادتهم على الحكام، وهذا الاعتداد بالنفس كان نتيجة ثروة الأمة، ونمو التجارة والصناعة فيها.

فحينما أسقطوا أسرة المنصور من الحكم ثار العامة كعادتهم وشفوا غليل غضبهم بنهب قصر المنصور البديع الذى بناه فى رضى قرطبة ليكون مقراً له ولرجال حكومته. وبعد أن انتهبوا ما فيه من

---

(١) لحق المعتد بالله بعد خروجه من السجن بابن هود وأقام عنده ومات فى لاردة

سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م.

الكنوز التي لا تقدر بثمن تركوه طعمة للنيران، واستمرت المذابح والنهب والاعتقال أربعة أيام لا ينفهه من حدتها أحد، وأصبحت قرطبة مجزراً.

وحينئذ جاء دور البربر، وانتهى حكم الصقالبة الجبارين بحكم البربر القساة الذين سمّنوا ونعموا بانتهاب المدينة، فحيثما سار هؤلاء البربر سار القتل والنهب وسارت النار في إثرهم، فكم نهبوا من قصر ثم أحرقوه، وقد لاقت منهم مدينة الزهراء الجميلة التي كانت ريحانة الخليفة العظيم شر ما يلاقى، فقد استولوا عليها بخيانة ثم انتهبوها ثم أشعلوا فيها النيران، ولم يبق منها من بدائع الفن الرفيع التي زينها بها الخليفتان إلا كومة من حجارة سفع، ووضعوا السيف في حاميتها وفر سكانها معتممين بالمسجد، ولكن البربر الذين خوت قلوبهم من الخشية والرحمة أحاطوا بهم، وذبحوا في بيت الله الرجال والنساء والأطفال (سنة ١٠١٠).

وفي هذا الوقت استقلت الولايات التابعة للخلافة بعد أن حطم الصقالبة والبربر العاصمة، ووضعوا على العرش خليفة بعد آخر، ونقلوا الخلافة من الأمويين إلى بني حمود، أو حاولوا تجربة حكم البلاد بمجلس يؤلف من الزعماء<sup>(١)</sup>، فأصبح لكل مدينة أو مقاطعة

---

(١) كما فعل أبو الحزم بن جمهور: فإنه حكم مملكة قرطبة حكماً يشبه الحكم الدستوري من سنة ٤٢٢ إلى سنة ٤٣٥ فكان الذي يقوم بالحكم جماعة من كبار رجال الدولة، ولما مات قام ابنه أبو الوليد بالأمر بعده على هذا التدبير إلى أن مات سنة ٤٤٣.

أمير مستقل، وذهبت في الهواء تلك الوحدة التي جمع بها المنصور مختلف الأهواء والأحزاب، ولم يرتح الإسبانيون أنفسهم لهذا الانتقال السريع، وإلى تمزيق الدولة إلى ولايات صغيرة، فأوا والحزن ملء قلوبهم ما صارت إليه بلادهم، وكيف أصبحت نهباً مقسماً بين الغرباء. فقد نعم البربر بالجنوب، وأخضع الصقالبة الشرق، أما البقية فقد سقطت بأيدي بعض محدثي النعمة والنفوذ، أو بعض الأسر القديمة التي نجت من ضربات عبد الرحمن الناصر أو المنصور القاصمة.

وكانت قرطبة وإشبيلية - وهما أعظم مدن الأندلس - تحكمان حكماً جمهورياً في الصورة لا في الواقع، لأن سلطة رئيس المجلس كانت تشبه سلطة الإمبراطور كل الشبه، وحكم في النصف الأول من القرن الحادى عشر نحو عشرين أسرة مستقلة في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف، وبينهم: بنو عباد بإشبيلية، وبنو حمود بمالقة والجزيرة، والأدارسة بغرناطة، وبنو هود بسرقسطة، وكان أقوى هؤلاء بنى ذى النون الذين ملكوا طليطلة، وحكموا بلنسية، ومرسية، والمرية.

وقد أحسن بعض هؤلاء الملوك الحكم وإن كان أكثرهم عتاة جبارين، غير أنه مما يعجب له أنهم كانوا جميعاً غطارفة متقفين يعضدون العلم والأدب، وكانت قصورهم مثابة للشعراء والمغنين، فقد كان المعتضد عالماً أديباً شاعراً، ولكنه نصب ببستانه خشباً

علق فوقها رءوس أعدائه الذين قضى عليهم، وكان يستبشر ويبتهج برؤيتها كل يوم.

وقصارى القول: إن المملكة كانت فى حالة من الفوضى والاضطراب تشبه ما وصلت إليه عند تولية الخليفة الناصر. نعم، إنه لم يقم بها عصيان من المسيحيين كما كان من ابن حفصون أيام الناصر، ولكن الفوضى كانت عامة، والخطر من سقوط الدولة وتحطمها كان بارزاً للعيان. فإن نصارى الشمال استجمعوا للوثوب، ورأوا الفرصة سانحة فهموا لاهتبالها، لأن ألفونسو السادس (الأذفونش) الذى وحد تحت إمرته أستورياس، وليون، وقشتالة، كان قد فهم ما يجب أن يفعله تمام الفهم، فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يمد حبله لملوك الطوائف مداً كافياً، ليشنقوا به أنفسهم، لأن هؤلاء الطغاة الذين لم ينظروا فى العواقب، ولم يعنوا إلا بأنفسهم، ولم يتركوا جهداً إلا بذلوه فى إضعاف منافسيهم - كانوا يجثون عند قدمى ألفونسو لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين - لذلك تقربت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونسو بتقديم الإتاوات، وكان ألفونسو يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته، لأنها ثمن عطفه وحمايته، ولأنه كان يريد أن يرضخ المسلمون من المال، ما يكفى لمحوهم ومحو آثارهم من إسبانيا.

وقد بذل ملوك الطوائف هذه الإتافات للاستعانة بجيوش ألفونسو، أو للخوف من غاراته العنيفة التي كان يشنها في كل مكان، حتى لقد وصلت جنوده إلى قادس.

وكان شمال إسبانيا فقيراً ممحلاً، وكان من أضحيك القدر أن يجمع ألفونسو من ملوك المسلمين ما يعد به العدة لدمارهم، على أنه مهما اختلف هؤلاء الملوك وتحاسدوا، فقد كان لصبرهم على ألفونسو حد يقفون عنده، فإنهم تيقظوا من سباتهم وأحسوا بالخطر المحقق بهم، وعملوا على دفع الكارثة عنهم حينما علموا أن ألفونسو اخترق الأندلس على جواده آمناً مطمئناً حتى وصل إلى أعمدة هرقل فنزل ليبترد في المحيط، وحينما رأوا أنه وضع حامية تزيد على اثني عشر ألفاً من الجنود الشجعان في حصن ليط، وهو في وسط بلاد المسلمين ومنه كانت تخرج جنوده لتعيث وتنهب وتغير، وحينما علموا أن لذريق البيفاري أو السيد الكمبيدور<sup>(١)</sup> احتل بلنسية مع القشتاليين، ونهب ما حولها من الأرض حتى صيرها قفراً يباباً. وحينما ظهر لهم جلياً أن ألفونسو لا يقصد إلا أن يعيد إسبانيا إلى المسيحية وأن يستأصل شأفة المسلمين.

ولكن ملوك الطوائف كانوا على الرغم من تفاقم الخطب أضعف من ذات خمار، وكانوا في يأس من توحيد كلمتهم وتواثقهم على

---

(١) يسميه صاحب نفع طيب القنبطور.

مكافحة العدو، لكثرة ما بينهم من تحاسد وتنافس وغيره. لذلك صاروا إلى ما ليس منه بد، وهو دعوة الغرباء إلى عونهم.

وقد رأى بعضهم ما فى هذه الدعوة من الخطر المحيى، ولكن المعتمد بن عباد<sup>(١)</sup> أسكتهم بقوله: «لأن أكون سائق جمال فى صحراء إفريقية، خير من أن أرى الخنازير فى قشتالة!». ولم تكن المعونة التى التمسوها بعيدة عنهم، فقد شبت ثورة فى شمال إفريقية انبثق منها مذهب متعصب جديد سى أصحابه بالمرابطين، وقد تغلب هؤلاء المرابطون على المملكة جميعها من الجزائر إلى السنغال، وكانوا من طابع طارق وأصحابه، وكانوا على أتم أهبة لاجتياز البحر والتغلب على إسبانيا الخصيبة، وأظهروا للناس أن هذا الغزو مكرمة منهم وجهاد فى سبيل الله، ولم تبدر منهم بادرة تدل على رغبتهم فى الأندلس، غير أنهم نزلوا بإسبانيا، ومن الهين أن ندرك أنهم نزلوها لتكون دار إقامة.

وحيثما وصل المرابطون إلى الأندلس كأرجال الجراد ليلتهموا المملكة التى قدمت نفسها لهم طعاماً، كانت الطريق مذلة أمامهم، وابتهج الأندلسيون حينما رأوا فيهم ساعداً أزل مفتولا، جاء ليمحو الفوضى التى بددت ههنا تهم منذ أن مات المنصور العظيم، أما ملوك الطوائف أو صغار الطغاة فمنهم من دعاهم للإقامة ببلادهم، ومنهم

(١) أشهر ملوك الطوائف، شاعر، أديب، شجاع. أسره ابن تاشفين ومات

بالغرب سنة ٤٨٨هـ.

من لم يستطع مقاومتهم فصبر على ماض، ولكنهم اغتبطوا جميعاً بكبح القشتاليين وكسر شوكتهم، وعندما وصل يوسف بن تاشفين ملك المرابطين<sup>(١)</sup> إلى الأندلس، وتملك مدينة الجزيرة لتكون ميناء له وقاعدة لجنوده، اخترق الولايات بجيوشه حتى التقى بالفونسو عند الزلاقة بالقرب من بطليوس، في الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م / ٤٧٩ هـ وصاح ألفونسو حينما رأى جيش الإسبان اللهم: «بمثل هؤلاء أحارب الشياطين والجن والملائكة». على أنه مع هذا التجأ إلى حيلة ليدهم بها أعداءه من البربر والأندلسيين على غرة، ولكن يوسف لم يكن من الهين خداعه، فأحاط في مهارة وحذق بجيش القشتاليين من الأمام والخلف، ووضعهم بين نارين، فتحطم القشتاليون وهزموا شر هزيمة على الرغم من المقاومة العنيفة وأساليب الحرب التي برع فيها هؤلاء الجنود المدربون، وفر ألفونسو - وما كاد يستطيع الفرار - بنحو خمسمائة فارس، وترك آلافاً مؤلفة من خيرة جنوده في الميدان. وبعد هذا النصر المبين عاد يوسف بن تاشفين إلى إفريقية، وترك بالأندلس ثلاثة آلاف من جنوده لمعاونة الأندلسيين؛ لأنه وعد ألا يضم الأندلس إلى مملكته، وبر بهذا الوعد إلا في جزيرة طريف فإنه اختارها لنفسه.

(١) خلف ابن عمه على بلاد المغرب فاستقر له ملكه ودانت بلاده، وكان شجاعاً داهية متشدداً في الدين، توفي سنة ٤٩٣.

فرح الأندلسيون بمقدمه وأطروا شجاعته، وابتهجوا بنجاة بلادهم، وأعجبوا بسذاجته وتقواه، إذ رأوا أنه لا يعمل عملاً إلا بعد استشارة الفقهاء، حتى إنه أبطل الضرائب بإسبانيا إلا ما أقره عمر بن الخطاب في عهد الإسلام الأولى، ولكن طبقة المتعلمين بالأندلس كانت تسخر من جهله وجفوة أخلاقه، فلم يكن يحسن العربية، ولم يكن يدرك مرامي الشعراء إذا أنشده شاعر قصيدة في مدحه، وليس هذا بالنقص اليسير في رأى الأدباء الأندلسيين الذين لا يغفلون عن إنشاد الشعر والاستشهاد به ولو كانوا في بحر من الدماء، فلم يكن يوسف فى أعينهم إلا بربرياً، غير أن نقدهم لثقافته لم يكن له وزن ما داموا فى حاجة إلى سيفه، أما جمهرة الأندلسيين ففكروا فى رفاهيتهم أكثر مما فكروا فى علمه، وكانوا على استعداد لقبوله مسرورين ملكاً على الأندلس، وفى سنة ١٠٩٠ م / ٤٨٣ هـ استجدى ملك إشبيلية عون المرابطين ليصدوا عنه غزوات المسيحيين الذين استمروا فى عدائهم وطفقوا يرسلون غارات مستمرة من حصن ليظ.

أجاب ابن تاشفين الدعوة مظهرًا التثاقل وعدم الرغبة، ولكنه فى هذه المرة وجه هجومه إلى ملوك الطوائف وإلى نصارى قشتالة على السواء، وملاً الملوك الأغبياء أذنيه بشكوى بعضهم من بعض وخيانة بعضهم لبعض حتى عرفهم يوسف جميعاً، ولم يثق بهم جميعاً. وكان يعتمد على الأمة وعلى الفقهاء الذين أحلوه سريعاً من

عهده بالألا يضم إليه الأندلس، وغالوا فأدخلوا عليه: أن مما يجب عليه - إرضاء لربه - أن يعيد السلام والرفاهية إلى هذه البلاد المنكوبة.

أطاع ابن تاشفين نصيحة الفقهاء، لما كان يخالجه من الطموح فى ملك إسبانيا الذى كان يكتمه ويخفيه، فشرع فى إخضاع إسبانيا قبل انتهاء سنة ١٠٩٠ فدخل غرناطة فى نوفمبر، ووزع على قواده الكنوز العجيبة التى لم يروا مثلها أو ما يقرب منها فى حياتهم من الماس والدر والياقوت والجواهر الثمينة، والحلى الذهبية والفضية، والكئوس الزجاجية وعقاق البسط، وغير ذلك مما لم يسمع به من النفائس، ثم سقطت جزيرة طريف فى ديسمبر، وشهدت السنة التالية سقوط إشبيلية وغيرها من كبار مدن الأندلس، وجرى ألفونسو جيشا يقوده البرهانس فهزمه المرابطون، وأصبح القسم الجنوبى فى أيديهم إلا مدينة بلنسية التى لم تفلح فيها محاولة ما دام السيد الكمبيدور يتولى الدفاع عنها، وفى سنة ١١٠٢ م / ٤٩٥ هـ سقطت بلنسية بعد موته، فعدت الأندلس الإسلامية كلها - حاشا مدينة طليطلة ورية - تابعة لمملكة المرابطين بإفريقية.

رضى جمهور الأندلسيين إلى حين - ولحاجة فى أنفسهم - عما آلت إليه البلاد بعد دعوة المرابطين إليها، ولكن قلة من عظماء الأندلس والمثقفين كانوا ساخطين على تلك الحال، فإنهم

كانوا يحكمون بطائفة من الدينيين المتزمتمين<sup>(١)</sup> كما كانت تحكم إنجلترا في أحد عهودها، ولكن إنجلترا ظفرت بملتون<sup>(٢)</sup> شاعر هذا العهد، فخفف من شدته وعبوسه. اشمأز الشعراء من جفوة البربر وخشونتهم وجهلهم، فإنهم لم يفهموا روائع أشعارهم، وإذا حاولوا التشبه بملوك الطوائف الأدباء البارعين في ذوقهم المرهف ونقدهم الدقيق، أتوا بما يستثير الضحك، ولم ير المفكرون في رجوع السلطة إلى الفقهاء المتعصبين ما يبعث على التفاؤل، فقد كان هؤلاء أصحاب الرأي والشورى عند المرابطين، فحاربوا كل ما يتصل بالفلسفة، وجمدوا على أن يفهموا القرآن من تفسير مفسر واحد<sup>(٣)</sup>. أما اليهود والنصارى فإنهم أدركوا سريعاً ما يفهم المرابطون من معنى التسامح، فقد قسوا في اضطهادهم، وجردوا عليهم سلاحين من القتل والنفي، وأما من بقى من الأسر القديمة ومن فر من السيف من ملوك الطوائف، فإنهم كانوا في يأس قاتل حينما رأوا هذا الدخيل يعيد إلى أذهانهم أعمال البربر الشنيعة آخر أيام الخلفاء بقرطبة.

(١) يشبههم المؤلف بالبيوريتان أو الأتقياء: وهم صف من البروتستنت متشدد في الدين وكان لهم نفوذ أيام حكم كرمويل.

(٢) شاعر إنجليزي من الدرجة الأولى اشتهر بالنقد اللاذع الساخر، ١٦٠٨ ومات سنة ١٦٧٤.

(٣) في أخبار المغرب المراكشي: وكان لا يبيت لحكمه في صغير ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، وقرر الفقهاء عنده تقبيح علم الكلام، وأمر بإحراق كتب الغزالي لما دخلت الأندلس.

ولكن جمهور الأندلسيين كانوا فى غبطة وسرور لاستيلاء المرابطين على الأندلس. فقد أمنوا على أرواحهم وأموالهم، وذلك شىء لم يستطيعوا تخيله أيام كانت المملكة ممزقة إلى ولايات، وكان أقوى الملوك من يستطيع أن يحمى رعيته حول قلعته، وأيام كانت الطرق غاصة بعصابات اللصوص، وأيام كان النصارى يغيرون على القرى وينهبون البلاد، أما الآن فقد استتب النظام والهدوء ولو إلى حين، وخضع الناس للقانون، وهزم النصارى فعادوا إلى حصونهم، وأخذ الناس مرة أخرى يحملون بالثروة والرفاهية.

ولكن هذا الحلم كان وهمًا وخيالًا باطلا، فإن القدر لم يدخر نجاحًا ولا سعادة لرعية المرابطين: فقد أصاب البربر ما أصاب الرومان والقوط من قبلهم، فإنهم جاءوا إلى إسبانيا غلاظًا شدادًا، لم يعتادوا النعيم والرفه، يتفاخرون بالشجاعة والقوة، ولهم قلوب يملؤها تعصب دينى غضوب سانج، ولكنهم لم يلبثوا بها إلا قليلا متمتعين بثمار انتصارهم حتى أصيبوا بفساد الأخلاق وانحطاط العزائم الذى أصاب جنود (هانيبال) حينما استنابوا إلى لذائذ الحياة فى (كابو)<sup>(١)</sup>. فقد البربر الميل إلى الحرب والإقدام على الأخطار واحتمال ويلات القتال، أو أقل إنهم فقدوا رجولتهم فى أقصر ما يتصور من زمن، فلم يكن لهم بعد عشرين عامًا جيش يعول عليه

---

(١) مدينة من أجمل مدن إيطاليا وأمنعها حصانة، حاصرها الرومانيون حتى كاد يهلك أهلها فاضطر هانيبال إلى تسليمها حوالى سنة ٢١٠ ق.م.

فى صد هجمات القشتاليين، بل كان جيشهم حشداً غير منظم من حطام آدمى وكسالى بائسين أدمنوا الخمر، وخذعوا فتوتهم فبددوها، وأصبحوا عبيداً لكل شهوة تجعل الرجل جبناً رعيدياً.

وبدل أن يصونوا النظام كانوا هم أول العابثين بالنظام، فقطعوا الطريق على المسافرين وسرقوا كلما لاحت لهم لائحة، ووصل الضعف بحكامهم أن صاروا تحت سيطرة العواهر من النساء، والطامحين من الفقهاء، فنقضوا اليوم ما أبرموه بالأمس، ومثل هؤلاء لا يطول بهم الحكم: فإن ثورة جامعة قامت بإفريقية للقضاء على المرابطين، وجدد القشتاليون بقيادة ألفونسو «المحارب» غاراتهم على الأندلس. ففى سنة ١١٢٥ عاثت جنودهم فى الجنوب سنة كاملة، وفى سنة ١١٣٣ أحرقوا أرباض قرطبة وإشبيلية وقرمونة، وانتهبوا شريش وأشعلوا فيها النار، وامتدت غزوات النصارى من ليون إلى مضيق جبل طارق، أما الدولة الإسلامية حيال كل هذا فلم تفعل شيئاً، لذلك غضب الأهلون وثار جموعهم، وطربوا المرابطين من البلاد.

ويقول مؤرخ عربى: «وفى النهاية ... عندما رأى الأندلسيون تحطم دولة المرابطين لم ينتظروا طويلاً، فكشفوا حجاب الرياء وأظهروا العصيان وسمى نفسه بالملك واتخذ شعار السلطان كل حاكم صغير، أو زعيم أو رجل ذى شأن يستطيع أن يجمع حوله ثلة من الأنصار، أو تكون له قلعة يحتتمى بها عند الحاجة، وصار الملوك

فى الأندلس بعدد ما فىها من مدن: فملك ابن حمدىن قرطبة، وابن ميمون قانس، وحقم ابن قسى و «ابن وزير سىدرائى» بالغرب، واللمتونى بغرناطة، وابن مردنىش ببلنسية، وبعض هؤلاء من الأندلسىين، وبعضهم من البربر.

ثم اختلفى جمىع هؤلاء حىنما ظهر علم الموحدىن الذىن أزاحوهم عن عروشهم، وأخضعوا الأندلس جمىعاً لحكمهم<sup>(١)</sup>. وكان عبء المؤمن قائد الموحدىن، هو الذى أزال ملك المرابطين فى إفرىقية وإسبانيا.

---

(١) كان مبدأ غزو المرابطين لامتلاك الأندلس فى سنة ٤٨٣، وحقمها منهم يوسف بن تاشفىن ثم ابنه على بن يوسف، ثم تولى بعده عمه إسحاق الذى قتله الموحدون سنة ٥٤١.